[رؤى كَـاتِب]

"ارْحَلْ يَا بُنَيَّ"

صريرُ الحديدِ يمزقُ سكونَ الفجرِ.

القطارُ يقتربُ كوحشٍ معدنيٍ ثائرٍ... تهتزُ الحجارةُ المطحونةُ أسفلَ القضبانِ، وترعدُ الأرضُ تحتَ وطأةِ العجلاتِ الصدئةِ بمحطةِ رمسيس... عام ٢٠٢٦.

العجوزُ جالسٌ على مقعدِهِ الخشبيِّ القديمِ قربَ "بابِ الخروجِ"... يقبضُ على عصاهُ الأبنوسيةِ بيدينِ متشققتينِ... أصابعُهُ منتفخةٌ من سنينِ حملِ الحجارةِ.

لم يكن جلوسُهُ هنا انتظاراً لرحلةٍ، بل كان يأتي ليرى العمرَ يمرُّ في رحلاتِ القطارِ؛ فالعمرُ في عينيهِ لم يكن سوى رحلةٍ طويلةٍ على قضبانِ الزمنِ...

فجأةً، اخترقَ صوتُ ابنِهِ رأسَهُ بحدةٍ: "يا أبي، أريدُ السفر... لم يعد لي مكانٌ هنا". تشنجت يدهُ على العصا. أغمضَ عينيهِ، لكنَّ الصوتَ عادَ أقوى، يترددُ في أركانِ روحهِ المتعبة: "لم يعد لي مكانٌ هنا."

صدمتْهُ الكلماتُ، فارتجفَ قلبهُ برفضٍ صامتٍ؛ إذ كان يرى في الرحيلِ خيانةً للترابِ الذي حاربَ من أجلِهِ، وطعنةً في جدارِ الصبرِ الذي بناهُ... ومع تزايدِ حدةِ النزاعِ بداخلهِ، انطلقَ إحساسُهُ بانفجارِ الهواءِ من القطارِ القادمِ، فاهتزت الأرضُ تحتَ قدميهِ بعنفٍ، وتحولَ الاهتزازُ إلى نبضٍ إيقاعيٍ يسحبُ المحطةَ الحديثةَ من تحتِهِ كستارةٍ ممزقةٍ.

بدأ ضجيجُ ٢٠٢٦ يختفي رويداً... رويداً؛ ثم اختفت أضواءُ الليد الباردةُ، وحلت محلَّها ظلالٌ صفراءُ دافئةٌ من مصابيحِ النيونِ القديمةِ، لترسمَ على الجدرانِ ملامحَ محطةٍ بدت في عينيهِ أكثرَ اتساعاً لخلوِّ أرصفتِها من الحشودِ.

الزحامُ الخانقُ انحسرَ، ليتركَ الميدانَ لرجالٍ بياقاتٍ عريضةٍ وشعرٍ مصففٍ بعنايةٍ، ونساءٍ يرتدينَ فساتينَ بسيطةً تحكي زمناً كان فيهِ الوقتُ يمشي ملكاً.

وهناك عندَ "بابِ الخروجِ"، يقفُ تمثالُ الملكِ رمسيس بشموخِهِ الصخريِّ العظيمِ، يظللُ المحطةَ بهيبتِهِ قبلَ أن يغادرَ ميدانَهُ للأبدِ.

قرأ على اللافتةِ عام ١٩٧٦. اختفتِ الانحناءةُ والتجاعيدُ ليحلَّ محلَّها أملٌ وابتسامةٌ. عادَ شاباً مفرودَ الظهرِ، يرتدي بدلتَهُ العسكريةَ المكويةَ، ويمسكُ بيدهِ "خطابَ إنهاءِ الخدمةِ" الذي استحقَّهُ عن جدارةٍ بعدَ انتصارِ أكتوبر العظيمِ.

نظرَ إلى ذلكَ البابِ وفي عينيهِ نصرٌ يظنُّ أنَّهُ سيفتحُ لهُ كنوزَ الأرضِ، وقبضَ بيدِهِ القويةِ على الورقةِ التي كانت تذكرتَهُ الوحيدةَ للعودةِ إلى الحياةِ المدنيةِ.

لكنَّ شريطَ الذكرياتِ اندفعَ كالإعصارِ؛ رأى نفسَهُ يخرجُ من هذا البابِ بالزهوِ ذاتِهِ، قبلَ أن تكسرَهُ الأيامُ وهو يبحثُ عن عملٍ يحققُ لهُ حلمَهُ.

لكنه ندمَ كثيراً عندما اصطدمَ بواقعِ الحياةِ لأنَّهُ لم يحمل شهادةً عاليةً تساندُهُ؛ فأدركَ وسطَ زحامِ الحياةِ أنَّ مصرَ التي احتاجت سواعدَ تدافعُ عنها، كانت تحتاجُ أيضاً إلى عقولٍ تبنيها بعدَ النصرِ.

رأى نفسَهُ يحملُ أكياسَ الأسمنتِ تحتَ شمسِ الصيفِ الحارقةِ، يمسحُ الدمَ عن كتفِهِ النازفِ لكنه لا يمتلكُ رفاهيةَ الراحةِ، لأنَّ اللقمةَ في فمِ أولادِهِ أغلى من كسرةِ ظهرِهِ.

فقررَ أن يخوضَ حرباً أشرسَ من أكتوبر؛ حرباً ضدَّ الحرمانِ.

صهرَ عُمرَهُ ليضعَ اللقمةَ في أفواه أبنائِهِ، ويحرمَ جسدَهُ من الراحةِ ليوفرَ لهم ثمنَ الكتبِ والدروسِ...كان يرى في كلِّ رحلةِ قطارٍ عاماً يرحلُ من عُمرِهِ دونَ أن يحققَ لنفسِهِ شيئاً، وعزاؤُهُ الوحيدُ هو تلكَ "الهِمَّةُ" التي زرعَها في أبنائِهِ لتكونَ السندَ والبديلَ عن سواعدِهِ التي ذبلتْ.

هو الآن يحتاجُ لابنِهِ بجانبِهِ مثلما احتاجَ الوطنُ لشبابِهِ يوماً ولم يتأخر؛ هو الآن يحتاجُ ابنهُ ليرى ثمرةَ كفاحِهِ الخمسينيِّ أمامَ عينيهِ.

لكنَّ البابَ الذي خرجَ منهُ منتصراً أصبحَ الآنَ خلفَهُ، وصورةُ ابنِهِ تقفُ أمامَ نفسِ البابِ بكسرةٍ لا تليقُ بالنصرِ.

وقفزَ إلى ذِهْنِ العجوزِ صُورُ الأمهاتِ اللاتي ينتظرنَ جثثَ أبنائِهِنَّ على الشواطئِ، والشبابِ الذينَ ابتلعَ البحرُ أحلامَهم في قواربِ الموتِ. فَهزَّ رأسَهُ بقوةٍ لينفضَ الفكرةَ... ثم نظرَ إلى طيفِ ابنِهِ... وحمدَ اللهَ في سِرِّهِ أنَّ "العقلَ" الذي بناهُ سيعبرُ بهِ الحدودَ بكرامةٍ لا بكفنٍ مبللٍ.

وأدركَ أنَّ بقاءَ ابنِهِ بجانبِهِ سيعني رؤيةَ انكسارِهِ كلَّ يومٍ، وهو ما لا يطيقُهُ قلبُ أبٍ مقاتلٍ.

وفجأةً، انطلقَ نفيرُ القطارِ بحدةٍ مروعةٍ، فمزقَ ستارَ الماضي وأعادَهُ قسراً إلى مكانِهِ.

فتحَ العجوزُ عينيهِ ببطءٍ على وجعِ جسدِهِ المنهكِ، وتنفسَ بيأسٍ هذهِ المرةَ.

كانت صورةُ ابنِهِ تحملُ "تذكرةَ رحيلٍ"، وكانت هي الوجهُ الآخرُ لـ "خطابِ النصرِ" القديمِ.

رفعَ رأسَهُ، وتنهدَ تنهدةً طويلةً من أعماقِ صدرِهِ المكسورِ، ونطقَ بنبضِ قلبِهِ الصامتِ وكأنَّهُ يخاطبُ ابنَهُ:

"ارحل يا بني... ارحل. لكن لا تأتِ يوماً وتجلس مكاني على هذا المقعدِ، تحكي لابنك عن انتصارٍ واحدٍ فقط، وتعيش على ذكراه ما تبقى."

ثم أضاف بتمتمةٍ صلبةٍ ينهي بها حربَهُ الداخليةَ:

"أنا دفعتُ ثمنَ النصرِ غالٍ... ولا أريدك أن تدفعَ ثمنَ هزيمتي. ارحل.. فوحدتي أهونُ عليَّ من رؤيةِ هزيمتِكَ."

أرخى قبضتَهُ عن العصا، واستقرَّ ظهرُهُ على المقعدِ، ليعودَ إليهِ ضجيجُ الحياةِ بمحطةِ رمسيس... ليمضي القطارُ، وتبقى الذكرياتُ.

بقلم اسامة ابراهيم

[رُؤى كَـاتِب] الإسكندرية/ (مايو ٢٠٢٦) جميع الحقوق الأدبية محفوظة©